

مَقَدِّمَةٌ

إن التعامل مع النص الشعري ليس مجرد تعامل مع تراكيب لغوية داخل إطار موسيقي وحسب ، وإنما هو تعامل مع نظام متكامل يقوم على مجموعة من التوازنات . فيُنظَرُ إلى وحدات النص وعناصره باعتبارها دوائرٍ يحتوي بعضها بعضاً احتواءً متكافئاً ، فتحتوي الألفاظ المعاني ، احتواءً يتكافأ مع احتواء البيت لهذه الألفاظ ، وتحتوي الأبيات موضوع القصيدة كما يحتوي الموضوع تلك الأبيات ، وأن تكون في ذلك كله معبرة عن صاحبها ، مؤثرة في غيره من جمهور المتلقين .

ونظراً لتعدد زوايا التعامل مع النص الشعري ، فقد جاءت الدراسات النقدية في اتجاهات شتى ؛ فمنها ما تعامل مع بنية النص ، ومنها ما تعامل مع البعد الموسيقي للشعر ، وثمَّ دراسات أخرى كان هدفها رصد تأثير النص على المتلقي ، ودراسات كان هدفها المبدع وأسلوبه في التعامل مع النص ... إلخ .

وقد تعددت المصطلحات المستخدمة في عرف النقد الأدبي ، وقد تعددت دلالات تلك المصطلحات على أجزاء بعينها في النص الشعري بحيث أصبحت بعض هذه المصطلحات خاصة . العامة منها تنسحب مفاهيمها على مواضع مختلفة باختلاف استخدام النقاد لها واختلاف عنايتهم بدراسة زوية معينة من زوايا عملية إبداع النص الشعري .

وكانت ثمَّ ملاحظة ، أن هذه المفاهيم في توزيعها تدور في فلك مفهوم واحد ، هو مفهوم التوازن . ولذا جاءت هذه الدراسة كمحاولة لوضع المفهوم الذي يجمع شتات النص الشعري بأبعاده المختلفة ؛ اللفظية والمعنوية والموسيقية ، وكذلك الأبعاد الإنسانية المتمثلة في المبدع والمتلقي ، فكان المفهوم هو " التوازن " .

وقد تعددت الدراسات التي تناولت عملية إبداع النص الشعري ، وقد ورد في بعضها لفظ التوازن صراحة ، وبعضها الآخر دارت أجزؤها حول معنى التوازن . وغيرها من الدراسات التي تناولت العملية الإبداعية ، وجاء كل منها في زاوية من زوايا هذه العملية والتي دارت معانيها حول مفهوم التوازن . ولكن لم تقم دراسة منها بتحديد مفهوم التوازن كما لم تجمع دراسة من هذه الدراسات أطراف عملية إبداع النص الشعري في إطار واحد؛ هو إطار التوازن .

وجاءت هذه الدراسة في مقدمة وخمسة فصول ؛ أما الفصل الأول فيدور حول مفهوم التوازن ، وذلك بتحديد هذا المفهوم من خلال المفاهيم التي تعامل بها النقاد مع النص الشعري .

وقد انقسمت هذه المفاهيم قسمين :

أولهما : المفاهيم التي قاربت معنى التوازن ؛ مثل مفاهيم المساواة ، الاعتدال ، التكافؤ ، المشاكلة ، التماثل إلخ .

وثانيهما : مفاهيم اختلال التوازن ؛ والتي دارت حول المفاهيم التي جاءت لتصف جوانب القصور التي تصيب عملية إبداع النص الشعري ، مثل مفاهيم الاختلال ، الحشو ، القلق ، التخليط ، التنافر ... إلخ .

ثم يأتي مفهوم التوازن ليجمعها في إطار واحد ، يشمل عملية إبداع النص الشعري من زوايا جميعها .

أما الفصل الثاني فقد جاء ليصف حالة التوازن بين المبدع والنص ، على اعتبار أن المبدع هو أول من يتعامل مع النص الشعري تأليفاً وإبداعاً . حيث يصف المراحل التي يمر بها المبدع حتى يصل إلى المرحلة التي يصبح معها المبدع مهياً لكتابة النص فعلياً . ثم ما

يتلو ذلك من انعكاس حياة المبدع وثقافته على معاني النص الشعري . وكذلك أسلوب المبدع في التعامل مع النص أثناء عملية الكتابة والتأليف ، وكذلك المحركات والدوافع التي تجعل المبدع في حالة توازن مع نصه .

ثم يأتي دور المتلقي في التعامل مع النص الشعري ذلك المتلقي الأُوَّيِّ ؛ وهو الذي لم تسبقه دوافع فنية معينة أو منهجية في تعامله مع النص الشعري ، وإنما يتعامل مع النص بطريقة تلقائية تظهر في ردود أفعاله ؛ والتي تأتي في صور مختلفة ، وكان هذا هو موضوع الفصل الثالث ، وقد أطلق عليه الباحث (الأداء النصي المرتد) ، حيث يؤدي المتلقي النص أداء يتوازن مع أداء المبدع له ، فإذا كان المبدع يؤدي النص كتابة وإبداعاً ، فإن المتلقي يؤدي النص إنفعالاً وتأثراً .

ولا يتحقق هذا التأثير إلا إذا توفرت عدة توازنات بين المبدع والمتلقي ، ومن ثم بين النص والمتلقي .

قد انحصرت هذه التوازنات في التوازن النفسي ، والتوازن الثقافي الاجتماعي والتوازن الزمني ، وكذلك التوازن الفني الموضوعي . وتختلف قوة هذا (الأداء النصي المرتد) تبعاً لتوفر هذه التوازنات وكذلك تبعاً لدرجتها وقوتها .

أما الفصل الرابع فقد انتقل بالأداء النصي المرتد إلى مرحلة التلقي المُنْهَج ؛ ومن ثم من المتلقي أو القارئ الأُوَّيِّ إلى القارئ المتخصص ، الذي يضع اشتراطات فنية معينة يقبل من خلالها النص ، ومن ثم يتوازن معه . وهذه الاشتراطات قد وضعها إما نقاد أو علماء لغة أو مؤرخون ... إلخ .

ولذا فقد دار هذا الفصل حول مجالات التوازن النقدي أو التوازن الممنهج ، فكان منها : التوازن الموسيقي ، والتوازن اللفظي ، والتوازن الفني ، والتوازن الأخلاقي ، ثم يأتي

التوازن الشخصي الذاتي والذي يصف الحالة التي يخرج فيها هؤلاء المتخصصون من حيز التبرير الفني لقبول النص ، إلى الحكم الذاتي الذي يخضع لعوامل شخصية بين صاحب النص والناقد أو من في درجته من التخصص . فكل واحد منهم يتوازن مع النص أو يرفضه تبعاً لاعتبارات فنية وضعها هو تبعاً لمجال تخصصه وموضوع دراسته .

ثم يأتي الفصل الخامس ليقدم نماذج تطبيقية لعملية التوازن ، وينقسم هذا المجال التطبيقي قسمين : أما الأول : فهو الذي يقوم على دراسة النص الشعري المرتبط بخبر أو قصة ، ومن خلاله تتضح الاعتبارات الخارجة عن فنيات النص الشعري . حيث يكشف الخبر عن الدافع من عملية إبداع النص ، وكذلك يبين عملية (الأداء النصي المرتد) من خلال شخصيات الخبر التي قامت بعملية التلقي . وهذا جانب من جوانب النص المرتبط بخبر .

أما الجانب الأخر فهو المتعلق بالنص الذي يحمل خبراً في ذاته ، حيث يحاول المبدع من خلاله إحداث التوازن بين فنيات الشعر ، وفنيات الخبر حتى تكتمل صورة الحدث في إطارها الشعري .

أما القسم الثاني فهو النص الشعري غير المقيّد بخبر ، وهو النص الذي يعتمد على توازنه في ذاته من خلال فنيات الشعر ، دون أن يقيد خبر أو قصة حركة الشاعر داخل النص الشعري . وكان نمونجه نصاً من شعر المتنبي ، حيث تأتي دراسة هذا النص لتكشف عن الصياغات التي تصل بالنص ليصبح نمونجاً لحالة التوازن .

ويعد ... فإن كان سداد فمن الله وحده .

هزلاً وبالله (التوفيق) ،،،

أبو زيد بيومي